



وصف المنافقين - العبادة طاعة

درس حوارية عامة

اللقاء الرابع من تفسير سورة البقرة | شرح الآيات 17 - 24

2023-01-05

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أيها الأخوات الفضليات، أيتها الإخوة الأكارم، أسعد الله أوقاتكم بكل خير، ومع اللقاء الرابع من لقاءات سورة البقرة، ومع الآية السابعة عشرة من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)

(سورة البقرة)

تذكير بما سبق:

أسلفنا سابقاً أنَّ سورة البقرة قد افْتُتِحَتْ بِآيَاتٍ تصف المؤمنين، خمسٌ آياتٍ، ثم تأتي صفات الكافرين، ثم أربعة عشر آية تصف المنافقين، وبيَّنا أنَّ الإسهاب في وصف المنافقين، والمسلمون قد جاءوا إلى المدينة حديثاً وسيكون هناك منافقون، إذ أنَّ المنافقين لا يظهرون في حالة ضعف الإسلام والمسلمين، وإنما يظهرون في حالة القوة، ففي القوة تجد المنافق، لأنَّ المنافق يريد أن يكسب مكاسب المؤمنين، وفي الوقت نفسه أن لا يتخلى عن ما له من مكاسب عند الكفار، فيظهر في حالة قوة المسلمين، لذلك كل الآيات التي تذكر المنافقين آياتٌ مدنية، فالنفاق لم يظهر في مكة وإنما ظهر في المدينة، فالإسلام عندما قويت شوكته ظهر المنافقون، من هنا فالقرآن الكريم يُسهب في وصف المنافقين، لأنَّ المنافق خطره عظيم، المؤمن واضح، والكافر واضح رغم كفره، لكنه أعلن عداؤه فهو عدوٌّ واضح، المنافق يتسلل داخل الصوف ويبعث في صفوف المسلمين فساداً، فوجب التنبيه منه، لذلك تحدَّث الله عن المنافقين بدءاً من الآية الثامنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

المنافق كافر:

فالمنافق كافر، هو ليس مؤمناً لكنه يُظهر الإيمان، ويَبين الله حالهم وفضح تصرفاتهم، إلى أن أراد أن يُبين مثل هؤلاء فقال: **(مَنْ لَهُمْ كَمَلٌ الَّذِي اسْتَوْفَدَ تَارًا)** القرآن يضرب الأمثال، والأمثال توضح الحقائق، والمثل يعني فيما يعني، أن ينتقل المتكلم من الحقيقة المجردة إلى مثل يوضح تلك الحقيقة، يعني من المجرد إلى المحسوس، المجرد كثيراً ما يصعب فهمه، المعنى المجرد يصعب فهمه، فإذا انتقلت إلى المحسوس استطعت أن توضح المعنى، يعني مثلاً: لو قلت لطفل صغير الله تعالى موجود رغم أننا لا نراه، هذه حقيقة مجردة، الطفل قد لا يستوعب ذلك، فلو قلت له سأضرب لك مثلاً: هل ترى الكهرياء؟ يقول: لا، كيف استدلت على أن الكهرياء موجودة؟ يقول لك: من تألق المصباح، فتقول له: إذا هناك أشياء لا نراها ولكنها موجودة، فيفهم عندها كيف لا نرى ربنا في الدنيا لكنه موجود، لأن آثاره تدل على وجوده، كما أن آثار الكهرياء تدل على وجود الكهرياء. إذاً تنتقل من المعنى المجرد إلى المعنى المحسوس، الشاعر ماذا قال؟

القرآن الكريم يضرب الأمثال:

فعندما أراد أن يتحدث، عن أن المصائب أحياناً عندما تأتي، فإنها تكشف أشياء جيدة في داخلها، فضرب هذا المثل، لولا أن النار تشتعل، وهذا في ظاهره شرٌّ، لما كنا شممنا رائحة البخور، رائحة العود الجميلة العطرة، إذاً بعض المصائب والحسد الذي يكون، يؤدي إلى أن تظهر الأشياء الجميلة، فضرب مثلاً لتوضيح ذلك، القرآن الكريم يضرب الأمثال، وهذا مثل المنافقين، قال: **(مَنْ لَهُمْ كَمَلٌ الَّذِي اسْتَوْفَدَ تَارًا)** أي كمثل رجلٍ استوفد ناراً، أي أوقد النار، إنما ليستضيء بنورها، أو ليطيح عليها طعامه، أو ليتدفأ بها، الإنسان لماذا يشعل النار؟ لحاجٍ، سيدنا موسى لَمَّا ذهب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ تَارًا سَاتِيكُمْ مِّنْهَا بَخْرٍ أَوْ أَيْكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)

(سورة النمل)

المنافق استضاء بنور الوحي ثم عاد إلى الظلمات:

أي تتدفقون، فالنار إما لتضيء طريق الإنسان، أو لتدفأ بها، أو لتضيء عليها طعامه، المنافق مثله كمثل رجلٍ أوقد ناراً وأججها، الآن أضاعت ما حوله، حققت الهدف منها، فلَمَّا أضاعت ما حوله انطفأت فجاءه وعاد إلى الظلمة، هذا حاله، فالمنافق وصلته الحقيقة التي هي نور الوحي، النار هنا كناية عن نور الوحي، أضاعت ما حوله، ما الذي يضيء الكون كله؟ وحي الله تعالى القرآن الكريم، السنة المطهرة، فالوحي نور، والله تعالى سمى القرآن نوراً، فالقرآن نورٌ يُبهر لنا الطريق، نهدي به في الظلمات، فهؤلاء المنافقون سمعوا الوحي، وجلسوا مع المؤمنين، وسمعوا ما عندهم من خير، وبدلاً من أن ينتفعوا بهذا الوحي، عادوا إلى الظلمات، ظلمات الكفر التي كانوا فيها، إذاً هم يشبهون هذا الرجل الذي أوقد ناراً من أجل أن تضيء له، أو من أجل أن يطيح عليها، أو من أجل أن يتدفأ بها، ثم بعد أن أخذ ووجد الخير في هذه النار، ذهب نورها وعاد إلى الظلمات، هذا هو معنى المثل. فالمنافق استضاء بنور الوحي ثم عاد إلى الظلمات، بعد أن وجد نور الوحي وسمع به، فما أسوأ حاله، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)

(سورة البقرة)

الأصم لا يسمع، الأبكم لا يتكلم، الأعمى لا يرى بعينه **(صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي)** أي منافذ الإدخال مُعطلَّة ومنافذ الإخراج مُعطلَّة، يعني باللغة الإنكليزية Input و Output ما عنده بصُرٍ يرى به الحق، ولا يلقي السمع فيسمع الحق، ولا ينطق بحقٍ، فالْحُكْمُ عليه أنه لن يرجع إلى الحق، لأنه عطل منافذ الحق، هذا الحكم من الله عزَّ وجل عليه بسببه، بسبب الإنسان، المنافق لَمَّا عطل عينه عن أن ترى آيات الله عزَّ وجل، وعطل سمعه عن أن يسمع القرآن الكريم مثلاً، أو الحق، أو الدعوة، أو الكلام الطيب، فتعطل النطق، لأنَّ الإنسان ما يدخله يُخرجه، إذا إنسان دائماً يسمع الحق، إذا جلس بمجلس يتكلم بالحق، وإذا إنسان دائماً يسمع الأغاني الماجنة، عندما يجلس في مجلس يتحدث عن الأغاني، وإذا إنسان دائماً يسمع الكلام الفاحش البذيء، إذا جلس يتكلم بالكلام الفاحش البذيء، هُم صُمٌّ وَعُمِّي وبين صمهم وعماهم لا ينطقون بحق.

الآن قد يقول قائل: لكن هُم يسمعون وبيصرون ويتكلمون، المقصود بالصم، الصم عن سماع الحق، وبالْبُكْمُ البُكْم عن قول الحق، وبالعَمَى العمى عن إِبصار الحق، فهذا في حُكْم الأصمِّ الأعمى، فإذا إنسان جاء إلى الدنيا، يتكلم ويُبصر ويسمع، ثم عطل هذه المنافذ واستخدمها كلها في المعاصي، فسمع الباطل والشباب والفحش والغناء الماجن، إلى آخره.. ثم نظر إلى الحرام، طوال النهار خلف الشاشة إلى أشياء مُجرَّمة لا يجوز النظر إليها، في الطرقات ينظر إلى المُحرَّمات، ثم إذا نطق بالباطل، فهذا الإنسان في حكم الأصمِّ الأبكم الأعمى، فالْحُكْمُ عليه أنه لم يرجع على الحق، لأنه عطل منافذ الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُجِيبٌ بِالْكَافِرِينَ (19)

(سورة البقرة)

سأضرب لكم مثلاً آخر، المثل الأول للمنافق: رجل (استوفد نازاً فلماً أصاءت ما حوله) رأى الحق، استضاء بنوره ثم رجع إلى الظلمات. المثل الثاني: (أو كصيب) هو المطر النازل من السماء، أو السحاب كلاهما صحيح، النتيجة هو المطر النازل من السماء، يصيب الأرض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِن يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۚ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ يُصِيبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

(سورة يونس)

فتزهر الأرض وتخصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَإِلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

(سورة ق)

الصَّيْبُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ الْخَيْرُ الْمَطَرُ وَفِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ:

فهذا الصَّيْبُ نزل من السماء (أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ) هذا الصَّيْبُ فيه خير، ما هو خيره؟ المطر، الماء، النبات، الزرع، الاخضرار، الشُّقيا، هذا كله من الخير، لكن هذه الأمطار النازلة فيها أيضاً جانباً قد لا يروق للإنسان، ما هذا الجانب؟ ظلمات ورعد وبرق، الإنسان إذا نزل المطر، يسرُّه من المطر الماء، يسرُّه الاخضرار، يسرُّه النبات، لكن يزعجه أصوات الرعد والبرق، ويزعجه الظلمة، إذا المطر في الليل، والصَّيْبُ نازل مع الظلمات، يكون فيها إزعاج، فهؤلاء لم ينتبهوا إلى خيرات هذا الوحي، لكنهم انزعجوا من التكليف التي أزعجتهم (ففيه ظلمات ورعد وبرق).

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) أصابعهم يعني رؤوس الأصابع، هذا مجاز، لأنَّ الأصبع كلها لا تدخل في الأذن، رؤوس الأصابع، من أجل أن لا يسمعوا الرعد والبرق (حَذَرَ الْمَوْتِ) يخافون من الصواعق أن تُصيبهم فتقتلهم، لأنَّ الصاعقة أحياناً تقتل الإنسان إذا نزلت على رأسه، فهو انزعج من التكليف الشرعية، انزعج من أفعال ولا تفعل، فترك الدين، فبشبه حاله حال من ترك كل ما في المطر من خيرات وبركات، وما عذب، وأنهار تجري، وأرض تهتز وتربو وتنتب، ترك كل هذه الخيرات التي يمكن أن يجنيها من الدين، وانتبه إلى ما يزعجه فقط! لأنه منافق لا يريد اتباع الحق.

فاليوم تجد الإنسان يقول لك الدين صعب، خيراً ما مشكلتك؟! فيه غص بصر، خمس صلوات فيه في اليوم والليلة، وضوء، زكاة يجب أن أدفع اثنان ونصف بالمنة، لا يجوز أن أشرب الخمر، هناك محرمات، أكيد، لكن هل نظرت إلى أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض لمن أطاع الله؟ هل نظرت إلى السكينة التي يلقيها الله في قلب من أطاعه؟ هل نظرت إلى توفيق الله وحفظه وتأييده وأمنه؟ ما نظر إلى كل الخيرات، نظر فقط إلى أشياء فأزعجته، الدين فيه جهاد، طبعاً التكليف فيه كلفة، لن تنال الجنة وأنت جالس في بيتك، لكن ما قيمة هذه الأشياء المزججة أمام الأبد؟ التي أزعجتك! إذا إنسان قضى سبب سنة في الطاعة، ثم قضى إلى الله وأخذ الأبد، فكل ما عاناه في الدنيا لا يساوي شيئاً أمام الأبد، لذلك:

{ يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ

مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَسَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَعُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ

آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ. }

(صحيح مسلم)

المنافقين ينظرون إلى التكليف فقط وينسون ما أعدَّ الله لمن قام بهذه التكليف :

الكافر قد يكون عاش في الدنيا في أحسن حال، وملك أعظم الأبنية، وأكبر السيارات، وأفضل الأجهزة، لكن عندما يُغمس في نار جهنم غمسة واحدة ينسى الدنيا وما فيها، وكذلك المؤمن، عندما يُغمس غمسة في الجنة يقول: (ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ) وقد يكون قضى حياته في السجن ربما، أو بعينه الطغاة المجرمون، لكنه لما وصل إلى مُبتغاه لم تُعد الدنيا تعدل شيئاً أبداً.

{ ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذَ مَحْيَطٌ عُيَسَ في البحرِ من مائه {

(الألْباني السلسلة الضعيفة)

{ والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ أحدكم إصبَعَه في اليمِّ ، فليُنظر بم يرجعُ {

(أخرجه مسلم)

أحدنا يأخذ إبرة خياطة ويذهب إلى البحر، يغمسها بالماء ويسحبها، كم سحبت الإبرة من الماء؟ هذه الدنيا في مقابل الآخرة، الآخرة هي البحر، والدنيا هي القطرة العالقة، إن علفت في هذا المَحْيَطِ.

فإدًا لا ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هناك بعض الأمور التي فيها كلفة، هناك استيقاظ على صلاة الفجر، هناك إنفاق مال، هناك التزام وابتعاد عن المُحَرَّمَات، أكيد الدين فيه التزام، لكن هل نظرت إلى ما أعدّه الله تعالى؟ هذا مثل المنافقين عندما ينظرون إلى التكليف، وينسون ما أعدّ الله لمن قام بهذه التكليف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْمَلُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

(سورة البقرة)

البرق هذا الذي يصدر إذا وجدوا فيه الضوء مشّوا فيه، فإذا أظلم عليهم، يعني ذهب البرق وعادت الدنيا ظلمة، قاموا ومشّوا في الضوء، فإذا أظلم عليهم أزعجهم ذلك وقالوا لماذا حصل ذلك؟!

قال: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لو أراد الله تعالى لذهب بسمعهم وأبصارهم، الرعد نسمعه، والبرق نراه، تعلمون أنّ سرعة الضوء أعلى من سرعة الصوت، لذلك نحن نرى البرق ثم بعد ثوانٍ نسمع صوت الرعد، لأنّ البرق يصلنا قبل الرعد، سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، بينما سرعة الصوت أقل من ذلك بكثير، قال: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ) فلا سمعوا الرعد ولا أبصروا البرق (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

المنافقون في قلوبهم مرض دفعهم إلى أن يتهموا الناس بالإفساد والسفاهة :

هذه الآيات كلها التي سبقت، تتحدث عن المنافقين، وتصف حالهم، وتُمثّل لهم، فُلخّص ما فيها، أنّ هؤلاء في قلوبهم مرض، وهذا المرض دفعهم إلى أن يتهموا الناس بالإفساد وهم المفسدون، وأن يتهموا الناس بالسفاهة وهم السفهاء، ودفعهم إلى أن يكون حالهم كحال من استوقد ناراً، أو كحال المطر النازل من السماء الذي فيه الخير والبركة، لكنهم لم ينتهوا إلا لما فيه من الرعد والبرق.

بعد هذه الآيات العشرين الأولى من سورة البقرة، التي فيها وصف المؤمنين، الكافرين، المنافقين، جاء الخطاب عامّاً لكل الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)

(سورة البقرة)

الله تعالى يخاطب عموم الناس بأصول الدين ويخاطب المؤمنين بفروع الدين:

خطاب عام، والله تعالى عندما يخاطب الناس عموماً، يخاطبهم بأصول الدين، لكنه عندما يخاطبهم بفروع الدين، يخاطب المؤمنين، فيقول: يا أيها الذين آمنوا، فهنا الخطاب للناس جميعاً، لأنه سيخاطب الناس كلهم بأصل من أصول الدين وهو العبادة، قال: **(يا أيها الناس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**، **(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)** العبادة هي منتهى الخضوع لمنهج الله تعالى، ومنها الطريق المُعَبَّد، نقول طريق مُعَبَّد أو طريق مُعَبَّد، يصلح الوجهان، الطريق تُذَكَّر وتؤنَّث، والأفصح تأنيهاً، فنقول طريق مُعَبَّد، أي وطنتها الأقدام حتى أصبحت مُدَلَّة، أمّا إذا كانت الطريق فيها حُفْرٌ وصخورٌ، فهي ليست مُعَبَّدة، فالطريق المُعَبَّدة وطلنتها الأقدام حتى دُلَّت ومنها العبادة، فالعبادة هي الطاعة المُطلقة لله تعالى مع الخُب، الطاعة مع الخُب يساوي عبادة، إذا أردت مفهوم سريع للعبادة: **طاعة + حب = عبادة**، فمن أطاع الله ولم يُحِبَّه ما عبده، ومن أحبَّه ولم يُطعْه ما عبده، فالعبادة أن تُحِبَّه بمنتهى الخُب، وأن تُطيعه بمنتهى الطاعة.

الإنسان في الدنْيَا أحياناً يطيع بعض الناس لكنه لا يُحِبُّهم، يقول لك هذا مُدبري في العمل لا بُدَّ من طاعته، فُطِيعه وهو لا يُحِبُّه، وأحياناً إنسان يُحب كثيراً شخص ما، لكن يقول لك لست مستعد أن أنقذ ما يقوله لأنني غير مقتنع به، لكنني أحبُّه شخص جيد، لكن أوامره أنا لا أستطيع أن أنقذها، لا أراها صحيحة، مع الله عزَّ وجل يجب أن تُطيعه وتُحِبَّه فهذه هي العبادة، فخاطب الناس فقال: **(يا أيها الناس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)** والعبادة هنا بمفهومها الواسع وليس بمفهومها الضيق.

فكثيرٌ من الناس إذا قلت له اعْبُدْ الله، اتجه ذهنه إلى الصلاة والصيام والزكاة والحج، وهذه عبادات لا شك في ذلك، بل هي أمهات العبادات، لكن العبادة بمفهومها الواسع هي تعبيد الحياة لله تعالى، أي جعل حياة الإنسان كلها في مرضات الله تعالى، فهو الآن يُعَبِّد حياته لله، فإذا أكل فهو في عبادة، وإذا ذهب في تزهية فهو في عبادة، وإذا لعب لعبة مباحة فهو في عبادة، وإذا ربَّى أولاده فهو في عبادة، وإذا أعف نفسه فتزوج فهو في عبادة، وإذا أعف نفسه عن الحرام فتزوجت فهي في عبادة، العبادة مفهومها واسع جداً، ليست عبارة عن مجموعة من العبادات الشعائرية، التعامل في العبادة هو الأساس، وهو الأكثر، الناس اليوم يظنون أنَّ العبادة مُجرد الصلاة والصيام، نعم هذه عبادات كما قلنا، بل هي بُني الإسلام عليها، لكن العبادة عندما نقول لإنسان اعْبُدْ ربك، أي اجعل حياتك خاضعةً لمنهج الله تعالى.

العبادة وقاية:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) فهنا يُذَكَّر ربنا جلَّ جلاله، أنه عندما بأمرك أن تعبد، وإنما بأمرك أن تعبد الخالق، هل يستحق العبادة أحدٌ غير من خلقك؟ الإنسان قد يطيع إنساناً إذا كان في طاعة الله طبعاً، المؤمن يُطيعه الناس في طاعة الله، لكن لا يعبد أحداً إلا الله، أي الخضوع الكامل هو لمنهج الله تعالى، فكان الله تعالى يقول: **(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)** تذكروا أنه هو الذي خلقكم جلَّ جلاله، **(الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)** هو الخالق جلَّ جلاله لك ولمن قبلك، **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** أي لعلكم تتقون ناره بعبادته، ما الذي يجعل بينك وبين نار الله وقاية؟ العبادة، **العبادة هي الوقاية.**

اليوم أنت إذا كنت في مكان وأمامك نارٌ مشتعلة، ما الذي يجعل بينك وبينها وقاية؟ لوخ زجاجي، تجلس خلفها، تتمتع بمنظرها، وربما ببعض دفتها، ولا تُحرقك، اليوم هناك مواقف زجاج، ودخل الزجاج النار، فيفكك الزجاج أن تُحرقك النار، فجعلت بينك وبين النار وقاية.

الآن نار الله تعالى ما الذي يقينا منها؟ عبادة الله، فإذا أطعته اتقيت النار، ومن عصاه فما جعل بينه وبين النار وقاية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

(سورة البقرة)

الآن يُعَدُّ جلَّ جلاله بعض نعيمه على عباده، حتى يدوقوا طعم عبادته، حتى يُحِبُّوا تلك العبادة، لأن:

{ جَلِبَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حَبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغِضَ مِنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا }

(الأبناي السلسلة الضعيفة)

الله عزَّ وجل جعل الأرض فراشاً:

اليوم إذا إنسان قدَّم لك معروفاً، إحصاناً، بأمر فُطِيعه، تقول له حاضر، أمرك، أنت لك الفضل، هذا في دنيا الناس، أما نظرت إلى نعيم الله تعالى، قال: **(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا)** نام على الفراش، الأرض كلها فراش، لماذا سُمِّيَ الفراش فراشاً؟ لأن وسائل الراحة موجودة فيه، الإنسان يرتاح بفراشه، الأرض كلها فراش، ربنا جلَّ جلاله هيا وسائل الراحة في الأرض، هناك كواكبٌ أخرى الحياة مُستحيلةٌ عليها، لا يوجد فيها ماء، إن لم يكن هناك ماء لا يوجد حياة، لو لم يكن هناك جاذبية أرضية لا يوجد حياة، على القمر الإنسان سدس وزنه يطير بالهواء، يضع الكأس فيطير الكأس، أي فراشٍ هذا؟ فالأرض الله جعلها فراشاً لئلا جعل فيها مقومات الحياة.

الأرض لها شمسٌ تُدْفِنُها، لو لم يكن هناك شمس يمكن أن تصل الحرارة إلى مئتان وسبعين درجة تحت الصفر، الصفر المطلق، هناك كواكب تجمُّدٌ كامل ما يستطيع الإنسان أن يعيش عليها، لو كانت الشمس قريبة قليلاً من الأرض، الشمس تبعد عن الأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر تقريباً، لو كانت أبعد من ذلك، الأرض أصبحت تجمُّدٌ كامل، مثل القطبين، لو اقتربت قليلاً، لا يمكن العيش عليها، أصبحت الحرارة خمسين ستين درجة بكل الأرض، لا يمكن أن يعيش الإنسان يحترق.

فالأرض جعلها الله فراشاً حينما هيا لك الأسباب فيها، فيها تربةٌ صالحة للزراعة، تزرع فتأكل، فيها أمطار تنزل فتشرب، جعلنا لك فيها القوت، الله مُقَيِّتٌ جلَّ جلاله، جعل لك القمح، الرز، البرغل، العدى، إلى آخره... أقوات، وجعل لك فيها الفواكه، هذه من الودِّ جلَّ جلاله، الإنسان يعيش دون فواكه، لو لم يكن هناك حمضيات يعيش الإنسان، إن لم يوجد المشمش والكرز يعيش الإنسان، لكن الله تعالى الودود جعل لك القوت، وجعل لك الأشياء الكمالية، فجعل لك الأرض فراشاً، مُهيأةً للراحة فيها.

السماء فوق الأرض مبنية بناءً وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

(وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) السماء فوق الأرض مبنية بناءً، وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فكان يُظن سابقاً أنَّ السماء فراغ، يعني لا يوجد شيء فراغ، لا، السماء بناء، والدليل في ثقوب الأوزون الذي عمل مئة مشكلة في الأرض، وخائفين منه، والتغير المناخي بسبب ثقب في بناء السماء، بسبب أنَّ الإنسان بالغ في استخدام ثروات الأرض، والسيارات، والمخلفات، والعوادم، والصناعات، فأصبح عندما تلوَّث بيئي، أمّا الأصل السماء بناءً مُحكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالسَّمَاءِ تَبَيَّنَّا بِآيَاتِهِ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضِ قَرَسْنَاهَا قَيْعَمَ الْمَاهِدُونَ (48)

(سورة الذاريات)

قال: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) الأرض فراش، السماء بناء، هناك صلُّ بين السماء والأرض، أنه ينزل الماء، لو لم ينزل الماء لا يوجد حياة (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) هذا الرزق، يرزقنا الله تعالى من الثمرات، سواءً الأقوات أو الفواكه إلى آخره.. حتى هناك تسالي، فستق وكاجو وكل شيء.

(مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) □ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أنتم تعلمون أنه لا شريك لله تعالى، فكيف تجعلون له ندًا؟! الله هو الشريك، يعني كيف تعبدوا الصنم مع الله عزَّ وجلَّ؟ كيف تعبدوا الحجر مع الله؟ واليوم نقول لبعض الناس: كيف تعبدُ شهوتك مع الله؟ كيف تعبدُ منصيك مع الله؟ كيف تعبدُ مالك مع الله؟ (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ليس من الإنصاف أن الله الذي خلقك، و (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) أن تجعل له ندًا وهو خلقك جلَّ جلاله.

قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا تَزَّلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا فَآتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)

(سورة البقرة)

الله هو الأعلى جلَّ جلاله الذي لا شيء فوقه:

(فِي رَيْبٍ) يعني في شكٍّ، أي لستم متأكدين أن هذا القرآن كلام الله أم لا، قال: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) تحدِّي، أنتم أرباب الفصاحة والبيان والبلاغة، شعراء، والمعلقات، وأشعار العرب، والعرب يأخذون سوق عكاظ، وإلى آخره.. حسناً إذا أنتم تقولون أن هذا الكلام هو كلام محمد صلى الله عليه وسلم، وأنتم بشيْر، أرباب الفصاحة، ومنكم الفصحاء والبلغاء، إيتوا بسورةٍ واحدة، يعني لو جئتم بمثل سورة الكوثر، لانتهى التحدِّي، من الكوثر للبقرة (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) من يشهد لكم على فعلكم هذا، وهؤلاء الشهداء من دون الله، لأن كل من اتخذوا شهيداً غير الله تعالى، فهو (مِّن دُونِ اللَّهِ) فالله هو الأعلى جلَّ جلاله الذي لا شيء فوقه (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ □ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)

(سورة البقرة)

تحدي الله تعالى للعرب بأن يأتوا بسورة مثل القرآن الكريم:

لم تأتوا بالسورة (وَلَنْ تَفْعَلُوا) هذا على التأييد، يعني تحدِّي (وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ □) إذا آمنوا أن هذا القرآن كلام الله، وأن هناك حساباً وعقاباً يوم القيامة (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ □) وهذا تهويل بشأن النار، نحن اليوم نقول ماذا تستخدم وقود؟ يقول لك: كاز أو غاز وكذا، فكيف إذا كانت هذه النار تشتعل بالناس، الذين سيحرقون فيها، سيصبحون وقوداً لها، يُشعلونها فكم هو حجم العذاب؟ والحجارة التي هي يستدل بها الناس على منتهى القسوة، الحجر القاسي أصبح وقوداً لهذه النار، يشعلها، إذا ما عسى هذه النار تكون؟ قال: (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ □ أَعَدَّتْ) أي هيئت وجعلت وأوقدت للكافرين، الكفر هو الغطاء، الذي كان أعمى عن الآيات، الذي كان لا يرى آيات الله عزَّ وجل، يكفر بوجود الله، لا يؤمن بالله تعالى، ولا بكتبه، ولا برسله، ولا بأنبيائه، ولا باليوم الآخر، فهذا قد أعدَّ الله له هذه النار العظيمة (الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ).

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا، وذهب همومنا وأحزاننا، اللهم ذكّرنا منه ما نُسِّبنا وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على النحو الذي يُرضيك عنّا، اجعل جمعنا هذا جمعاً مباركاً مرحوماً، واجعل التفريق من بعده معصوماً، ولا تجعل فينا ولا ممّا ولا معنا شقيّاً ولا محروماً، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.